من نجوم الإسلام
(٥)



تأليف

عبد الله الطنطاوي

دار القلم
دمشق

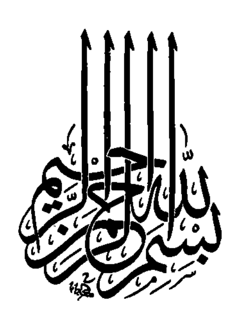
الدار الشامية
بيروت

الطّبعَة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ

زَيْنُ الشَّبَابِ



بسم الله الرحمن الرحيم

حدَّثَنا الفتى صادق أمين قال:

كان لجيراننا بنت صغيرة، بيضاء شقراء، ذات شعر طويل جميل، يلفت النظر، لأن عمرها لا يتناسب مع طول شعرها، فقد كانت بنت ثلاث سنين، وكان طول شعرها ثلاثة أفتار، وكان اسمها أغرب من طول شعرها. . كان اسمها مصعب.

استغربت هذه التسمية، فمصعب اسم من أسماء الصبيان، وليس اسماً من أسماء البنات. . ولي أكثر من زميل وصديق بهذا الاسم.

ذهبت إلى أبيها، وسألته عن سبب هذه التسمية، فقال لي:

ــ عندما قرأت السيرة النبويّة، شدّتني شخصية مصعب بن عمير، ذلك الشاب الوسيم الجميل المدلّل، الذي ترك ما كان فيه من غنى ومال وجاه، لوجه الله تعالى، بعدما أسلم، وآمن بالله ورسوله، وكفر بالأصنام، تلك الأحجار الصمّاء، التي نحتها العرب في الجاهلية، ثم عبدوها من دون الله تعالى.

كان جارنا يتحدّث في حماسة وإعجاب عن مصعب، فعرفت أنه يحفظ سيرة حياته عن ظهر قلب، فقلت له:

ـ لقد حبّبتني، يا عمّي، بهذا الصحابـيّ، وأرجو أن تقصّ عليّ قصّة حياته، من أوَّلها إلى آخرها. .

فقال جارنا مبتسماً:

ـ ولا تتعب؟

ـ ولا أتعب.

ـ ولا تملّ؟

ـ ولا أملّ.

فأسند جارنا أبو مصعب ظهره إلى الكرسيّ الذي يجلس عليه، ثم قال:

ـ ما رأيك في أن تسألني عمّا شئت من حياة مصعب، وأنا أجيبك؟

قلت:

ـ لا بـأس. . ولكنـي سـأستعيـر منـك ورقـة وقلمـاً، لأسجّـل المعلومات اللازمة عنه.

نهض جارنا، وجاءني بدفتر وقلم، ثم قال:

ـ سلْ عمّا تريد.

فشكرته شكراً جزيلاً على تواضعه، وكرمه، ثم سألت:

ـ أين ولد مصعب يا عمي؟

ـ في مكة المكرّمة.

ـ متى وُلِد فيها؟

فابتسم جارنا أبو مصعب وقال:

ـ كان عرب الجاهلية أمّيين، لا يقرؤون ولا يكتبون.. كان الذين يقرؤون ويكتبون قلائل.. ولهذا، ما كانوا يؤرخون لرجالهم، ولمن يولد منهم.. كانوا يؤرّخون بالأحداث، فيقولون: وُلد محمد ﷺ عام الفيل.. هذا مثال على التاريخ عند العرب في الجاهلية. ولهذا، فإننا لا نعرف السنوات التي وُلد فيها كثير من الصحابة الكرام رضي الله عنهم، مثل مصعب بن عمير وغيره.

شكرتُ جارنا على هذه المعلومة، ثم قلت له:

ـ هل لك، يا عمّي، أن تحدّثني عن حياته في الجاهلية؟

فازدادت ابتسامته عذوبة وأجاب:

ـ حياة مصعب في الجاهلية، كحياة غيره من فتيان مكة، ولكنّ مصعباً كان جميلاً، ويحبّ الجمال.. كان يلبس أجمل الثياب، ويحتذي أرقّ الأحذية، وكان يحبّ العطر، فلا يخرج من بيته إلاّ بعد أن يتعطر، فإذا مشى في طريقه، سبقته رائحة عطره، فيعرف الناس، أنَّ مصعباً قادم.

أحسست كأنّ رائحة العطر تملأ أنفي، فشعرت بالحيوية، وسألت:

ـ هل كان مصعب من أسرة غنية؟

ـ نعم يا بني، كان أبوه غنياً من بني عبد الدار. وكانت أمّه خُناس كثيرة المال.. وكانت تحبّ أولادها، وخاصة مصعباً، فتدلّله، وتعطّره، وتشتري له كلّ ما يطلب، وكانت تلبسه أرقّ أنواع الثياب وأجملها، كانت تريده أن يكون فتى مكة.. وهكذا كان مصعب.

كان جارنا يتكلم، وكنت أتخيّل مصعباً بين يدي أمه تجمّله وتعطّره، حتى نسيت أني طلبت دفتراً وقلماً لأكتب بعض المعلومات عنه، إلى أن نبّهني جارنا، فانتبهت من سَرَحاني، وقلت:

ـ شكراً يا عمي، وسوف أسجّل المعلومات كلّها إن شاء الله.. والآن.. أريد أن أعرف شيئاً عن مصعب بعد إسلامه.

أشرق وجه جارنا أبي مصعب، وأقبل عليّ يقول:

ـ كان رسول الله ﷺ حديث قريش، تتحدث عنه وعن الدين الجديد الذي جاء به، في أنديتها، وعند الكعبة المعظمة، وكان مصعب يستمع إلى تلك الأحاديث التي يختلط فيها الإعجاب بالشتائم والتهديد، فتزداد حيرته، ويسأل نفسه:

ـ لماذا كلُّ هذا العداء لمحمد؟

لماذا يسبّون محمداً ودينه الجديد؟ ولماذا يعذّبون أتباعه؟

ولماذا لم يرض محمد بدين قريش، ويعبد آلهة قريش، كما يعبدها أهله وأعمامه وزعماء قريش، وزعماء العرب؟

لماذا كلّ هذا العناد من محمد؟ مع أنه من السادة العقلاء والمنصفين!. لا بدَّ أنَّ هناك سرّاً خطيراً لا يعرفه مصعب..

ولكن.. من يستطيع أن يطلعه على ذلك السرّ، وينتشله من حيرته هذه؟

وبعد تفكير طويل، وتأمل عميق، قرّر مصعب الذهاب إلى محمد، والاستماع إليه مباشرة، لعله يتخلّص من هذا العذاب الذي يقلق راحته، ويزعج هدوءه.

عرف مصعب أنّ رسول الله ﷺ يجتمع بإخوانه المسلمين في دار واحد من أصحابه.. في دار الأرقم بن أبـي الأرقم، يقرأ عليهم ما ينزل عليه الوحي من القرآن وآياته، ويعلّمهم أمور دينهم، بعيداً عن أعين المشركين من زعماء قريش..

ذهب مصعب إلى دار الأرقم، وقرع الباب، وعندما فتحوا له، سبقته رائحة عطره إلى خياشيم الرسول وصحبه، فعرفوا أنّ الواقف في الباب هو مصعب بن عمير، جاء يستأذن في الدخول، لسماع النبـيّ والتعرّف على الإسلام.

أذن الرسول الكريم لمصعب بالدخول، وأجلسه بين يديه، وقرأ عليه آيات من القرآن الكريم، فبدا التأثر على وجه مصعب، والمسلمون يلاحظون تأثير الآيات في وجهه وعينيه، وفي حركات يديه، واختلاجات جسده، وكانوا متلهّفين لسماع شهادة الحق تنطلق من لسانه، وتنفرج عنها شفتاه القرمزيتان..

لم يطل انتظار المسلمين، فقد دعا الرسول الكريم ضيفه مصعباً إلى الإسلام، وإلى شهادة أنْ لا إله إلاَّ الله، وأنّ محمداً رسول الله، وكانت استجابة مصعب رائعة وسريعة، فقد هتف أمامهم، بصوته العذب، وفي خشوع المؤمنين الصادقين:

ــ أشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله.

فكبّر المسلمون، فرحاً بإيمان فتى قريش، مصعب بن عمير، وفرح النبـيُّ الكريم، بإسلام هذا الفتى الكريم، الذي كان يتأمله، ويطمع في إسلامه، لما يعرف من كمال عقله، وحسن أخلاقه،

وجمال شكله، ونظافة ثوبه، ولا بدَّ أنّ قلبه طاهر ونظيف، ولا بدّ أن تكون نفسه وعاءً كبيراً لا يملؤه إلّا هذا الإسلام العظيم، بمبادئه الكريمة، وعقيدته التي ترتفع بالإنسان، فتصفو روحه، وترقّ عاطفته، وتسمو مشاعره، فقد كرّمه الله، عندما خلقه في أحسن خلقة، وزيّنه بزينة العقل، ليهتدي به إلى الطريق المستقيم الذي يدلّه على الله، ويوصله إلى الجنة.

كنتُ أصغي إلى جارنا، وهو يتدفق بهذا الحديث البديع عن مصعب، وعندما سكت، سألته:

ــ هل أخفى مصعب إسلامه عن أهله وعن المشركين؟ أم أنه ظهر به، ولم يخف من أذاهم؟

تنهّد جارنا، ثم أجاب:

ــ بل أخفى إسلامه، امتثالاً لأمر الرسول الكريم ﷺ. . كان مصعب يعبد الله تعالى في الخفاء. . وكان يستخفي في صلاته، حتى لا يكتشف أحدٌ أمره، فيتعرض للعذاب، مثل سائر المسلمين الذين كان المشركون قد اكتشفوا أمر إسلامهم، فصبّوا عليهم نيران غضبهم، وعذّبوهم أشدَّ أنواع العذاب.

ــ وهل بقي مصعب مدة طويلة على هذه الحال؟

ــ لا. . لم يخف حاله على أمّه طويلاً، فقد لاحظت تغيّر حياته، ولكنّها لم تعرف السبب في ذلك التغيّر. . حاولت أن تعرف السرّ، ولكنها لم تصل إلى شيء، حتى جاءها من يكشف لها سرَّه، فقد رآه يصلّي كما يصلّي محمد وأصحابه.

ـ وماذا كان موقف أمّ مصعب من ابنها يا عمّي؟

ـ كان موقفاً شديداً.. جُنَّ جنونها.. كيف يترك مصعب دين آبائه وأجداده، ويؤمن بمحمد ودينه الجديد؟

حاول مصعب أن يهدّىء من ثورتها، ولكنها كانت تزداد حدّةً وشدّةً عليه، وعندما قال لها:

ـ أنا أحبّك يا أمي، وأريد لك الخير، والخير كلّ الخير في الإسلام، والشرُّ كلُّ الشرّ في الأصنام، تلك الحجارة الخرساء الطرشاء التي لا تسمع، ولا تتكلم، ولا تعي شيئاً، ولا تدفع عن نفسها ضراً، ولاتجلب لها نفعاً، وبإمكانك، يا أمي، أن تحطِّميها بالفأس، وأن تضربيها بالعصا، وأن تلقيها على الأرض، وتدوسيها بقدميك.

ثارت عليه أمّه، وانهالت عليه بالضرب.. سبّتْه وشتمتْه وهدّدته بالحبس، ثم حبستْه، وهو صابرٌ صامدٌ محتسب، حتّى تمكّن من الإفلات من حبسها، والتخلّص من تعذيبها، بالهجرة إلى الحبشة.. هاجر مصعب امتثالاً لأمر الرسول الكريم، وترك مكة وأهلها..

عقدت الدهشة لساني، فلم أستطع الكلام والسؤال، وشاهد جارنا دهشتي، فتابع يقول:

ولكنّ مصعباً وإخوانه المهاجرين، سمعوا أنّ قريشاً هادنت الرسول ﷺ، فعاد مصعب إلى مكة مع بعض المهاجرين، ليجدوا قريشاً ما تزال مصرّة على كفرها وعنادها وإيذائها للرسول الكريم، وأصحابه المستضعفين، فنصحهم النبيُّ الرؤوف الرحيم بهم، أن يعودوا إلى الحبشة من جديد، فعاد مصعب، وعاد معه بعض إخوانه،

والحزن ملء قلوبهم ونفوسهم، لأنّهم يفارقون رسول الله ﷺ، ويتركونه وأصحابه تحت رحمة الأشرار من زعماء مكة وطغاتها المشركين.

ولكنّ مصعباً لم يصبر طويلاً على فراق حبيبه وقائده محمد ﷺ، فعاد إلى مكة المكرمة، غير مبالٍ بما سوف يصيبه من الأذى والشرّ على أيدي طواغيتها.

عاد مصعب إلى مكة، وقد تغيرت حاله، لما أصابه من الفقر والجوع والتعب، فلمّا رآه المسلمون، نكسوا رؤوسهم حياء منه، وحزناً عليه، ورحمة به، وهم يرون ما نزل به من بؤس، ويقارنون بين ما كان عليه، وما صار إليه، أمّا رسول الله ﷺ، فقد تأمّله مليّاً، ثم قال:

«الحمد لله الذي يقلب الدنيا بأهلها.. لقد رأيت مصعباً، وما بمكة فتًى من قريش، أنعمُ عند أبويه نعيماً منه، ثم أخرجه من ذلك، الرغبة في الخير، في حبّ الله ورسوله».

فما ملكتُ نفسي ولا لساني، فهتفت:

ـ الله أكبر.. ما أعظمك يا سيّدي يا مصعب الخير، وما أروعَ تضحيتك في سبيل عقيدتك!.

كان جارنا أبو مصعب يتحدث بصوت متهدّج، وقد بلغ به التأثر مداه، وقد شاهدته يمسح دمعتين بكفّيه، فأردت أن أخفّف عنه وطأة الحديث الحزين عن مصعب، فسألته:

ـ هل كان لمصعب إخوة وأخوات يا عمي؟

أجاب أبو مصعب:

ـ نعم يا بني.. كان له أخ شقيق، هو أبو عزيز بن عمير، واسم أبـي عزيز: زرارة، بقي على شركه إلى ما بعد غزوة بدر، وقد شارك أبو عزيز في معركة بدر، وكان حامل لواء المشركين، ووقع في الأسر، فلما رآه مصعب، قال لآسره:

ـ شدَّ يديك به، فإنّ أمَّه ذات مال ومتاع، فلعلها تفديه منك.

سألتُ أبا مصعب:

ـ هل قال مصعب هذا على مسمع من أخيه أبـي عزيز؟

ـ طبعاً.

ـ وهل سكت أبو عزيز؟

ـ بل قال لأخيه مصعب: يا أخي.. هذه وصيّتك بـي؟

فقال له مصعب: أجل.. إنه أخي دونك.

فهتفت كالعادة:

ـ الله أكبر.. أخوه في الإسلام، مقدَّم على أخيه من أمّه وأبيه؟

قُرع جرس الباب، فنهض جارنا ليرى من الطارق، ثم عاد بعد قليل، ومعه أختي صادقة، فبادرتني بقولها:

ـ أنت هنا، ونحن نبحث عنك؟

فقلت لها:

ـ اجلسي لتسمعي حديث عمّنا أبـي مصعب، عن الصحابـيّ الجليل مصعب بن عمير.

فجلست صادقة، وهي لا تخفي فرحها، ثم قالت في مرح:

ــ من أوّلها يا عمّي:

فقلت محتجاً:

ــ تغيبين ثم تريدين سماع سيرة مصعب من أوّلها؟

وقال جارنا أبو مصعب:

ــ سوف يحدّثك أخوك صادق عن البدايات، لأنه سجَّل حديثي كلَّه..

ثم التفت إليّ جارنا، وسألني:

ــ أين وصلنا؟

ــ إلى إخوة مصعب.. كان له أخ شقيق هو زرارة بن عمير. فهل كان له إخوة آخرون؟

ــ أجل.. كان له أخ من أبيه أكبر منه، اسمه: أبو الروم بن عمير..

فسألت صادقة:

ــ عربـي قرشي ويدعونه أبا الروم؟ لماذا؟

ــ لأنَّ أمَّه كانت روميّة.. وأبو الروم هذا كان من المسلمين الأوائل، وكان ممن هاجر إلى الحبشة، وقاتل تحت لواء الرسول ﷺ في أحد، واستشهد في معركة اليرموك.

ــ ما شاء الله..

ــ رضي الله عنه وعن أخيه..

وتابع جارنا يقول:

ـ وكان لمصعب أخت هي هند بنت عمير.. وهي شقيقة مصعب.

وسألت صادقة:

ـ هل كان مصعب متزوجاً يا عمّي؟

ـ نعم.. وزوجته هي حمنة، أخت أمّ المؤمنين زينب رضي الله عنهما. وقد ولدت له بنتاً اسمها زينب.

قالت صادقة:

ـ ألا تحدّثنا، يا عمّي، عن حمنة زوجة مصعب؟

ـ كما تحبّين يا ابنتي.. كانت حمنة زوجة ولا كلّ الزوجات.. كانت محبّة لزوجها، عاشقة له، وكانت وفيّة، تشاركه في همومه، وتساعده فيما تحسن، وقد شاركت معه ومع زوجات المسلمين في غزوة أُحُد، فكانت تسقي العطاش، وتداوي الجرحى، وتقوم على خدمة المجاهدين.

قالت صادقة:

ـ وماذا كان ردّ فعلها عندما علمت باستشهاد زوجها مصعب؟

فتهدج صوت جارنا أبي مصعب، وهو يجيب:

ـ بعد انتهاء القتال في (أُحُد) جاءت نساء المجاهدين يسألن عن أزواجهنّ وأولادهنّ وإخوتهنّ، وكانت بينهنّ حمنة زوجة مصعب.. جاءت تسأل رسول الله ﷺ عن زوجها، فقال لها رسول الله ﷺ:

ـ يا حمنة.. احتسبي خالك حمزة بن عبد المطلب.

فسألت صادقة:

ـ هل كان البطل حمزة خال حمنة يا عمي؟

ـ نعم.. فأمُّ حمنة بنت جحش هي أميمة بنت عبد المطلب، أخت حمزة بن عبد المطلب..

ـ نعم يا عمّي.. تابع أرجوك.

فقال العمّ أبو مصعب:

ـ فقالت حمنة: إنا لله وإنّا إليه راجعون. رحمه الله، وغفر له.

ثم قال رسول الله ﷺ:

ـ يا حمنة.. احتسبي أخاك عبد الله بن جحش.

قالت حمنة: إنا لله وإنا إليه راجعون. رحمه الله وغفر له.

ثم قال الرسول ﷺ:

(وانخرط العمّ أبو مصعب بالبكاء، فلم نملك أنا وأختي صادقة دموعنا، فلمّا هدأ قليلاً، تابع يقول):

ـ قال لها رسول الله ﷺ:

يا حمنة، احتسبي زوجك مصعب بن عمير.

فصاحت حمنة: يا حرباه.

فقال النبيّ ﷺ: «إنّ زوج المرأة منها لبمكان».

وأردت أن نخرج من الجوّ الحزين هذا، فقلت:

ـ وبعدها يا عمي؟ هل تزوّجت حمنة بعد مصعب؟

فمسح العمّ آخر دمعة نزلت من عينيه، ثم قال:

ـ طبعاً يا بنيّ.. هذه هي سنَّة الحياة.. كانت حمنة قبل أن تتزوج مصعباً زوجة لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، ولكنها لم تخلّف له، وبعد أن طُلّقت من عبد الرحمن، تزوّجها مصعب، وبعد استشهاد مصعب، تزوّجها البطل العابد طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، فولدت له محمد بن طلحة، الملقَّب بالسجّاد، وعمران بن طلحة رضي الله عنهم جميعاً.

قلت للعمّ أبي مصعب:

ـ نعود إلى سيرة مصعب، يا عمي، إذا سمحت.. وصلنا إلى عودة مصعب من هجرته الثانية إلى الحبشة، ولقائه بالرسول القائد في مكة المكرمة.

قال العمّ أبو مصعب:

ـ رجع مصعب إلى مكة، ليرى البلاء والعذاب وألوان الشدائد تنصبّ على النبيّ الكريم وأصحابه، ولكنه لم يأبه لما سيلقى، بل لعله كان يشعر بالسعادة، لأنه يشارك النبيَّ وصحبه فيما هم فيه من ابتلاء، فليس من المعقول أن يعيش مصعب في الحبشة آمناً مطمئناً، وسليماً معافى، بينما يعاني رسول الله وأصحابه ما يعانون على أيدي المشركين.

ولقد أصاب مصعباً مثل ما أصاب أصحابه المسلمين، فضَوِيَ جسمُه من شدّة الجوع، فقد كان يأكل يوماً، ويجوع أياماً، وهو صابرٌ محتسب، حتى تطاير جلده كما يتطاير جلد الحية، وهو الذي كان

يتقلب في أحضان النعيم.. ولقد وصل به العناء إلى درجة جعلته لا يقوى على المسير، فاحتمله إخوانه على كواهلهم..

كان جارنا يتحدث في حزن وألم، كأنه يرى عياناً ما كان يعانيه مصعب والمسلمون، وكان حديثه مؤثراً جدّاً، فأردتُ أن نخرج من جديد، من جوّ الحزن، ولكنني لم أجد ما أقوله سوى:

ـ لا حول ولا قوة إلاَّ بالله.. كم عانى أجدادنا في سبيل هذا الدين؟! وكم كانت معركة العقيدة عنيفة وقاسية بين المسلمين والمشركين!!.

وسألت صادقة، كأنّها تستحثّ جارنا على الكلام:

ـ ثم ماذا يا عمي؟ هل انتهت سيرة هذا البطل؟

فأغمض جارنا عينيه، كأنما يستذكر ما فاته من سيرة مصعب، أو لعله يريد أن يواري حمرة عينيه، ثم قال:

ـ استمرّ مصعب مع رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، إلى أن كانت بيعة العقبة الأولى، عندما آمن بعض أهل المدينة من الأوس والخزرج، بالله ورسوله، والتقوا رسول الله ﷺ عند العقبة، ثم طلبوا منه أن يرسل إليهم من يعلّمهم أمور دينهم، ويقرأ عليهم القرآن، ويدعو أهل المدينة إلى الإسلام، فاختار الرسول الكريم مصعباً من بين أصحابه، ليقوم بهذه المهمة العظيمة، لما كان يتميز به من صفات الداعية الحكيم، من الصدق والإخلاص والحكمة والأخلاق الرضيّة، والصبر، والزهد، والعلم... كان مصعب صورة حيّة للإسلام..

ــ كم كان عدد المسلمين من أهل المدينة، الذين بايعوا النبيَّ بيعة العقبة الأولى يا عمّي؟

ــ اثني عشر.. كانوا اثني عشر مسلماً..

ــ وعلى ماذا بايعوا رسول الله ﷺ يا عمّي؟

ــ بايعوه على أن لا يشركوا بالله شيئاً، وعلى أن لا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه من بين أيديهم وأرجلهم، وعلى أن لا يعصوه في معروف.. ثم سألوا النبيَّ عما يمكن أن يكون لهم، إذا هم وفوا بما عاهدوه عليه؟ فقال لهم النبي ﷺ: فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً، فأمركم إلى الله عزَّ وجلّ، إن شاء غفر، وإن شاء عذَّب.

فتساءلت:

ــ أين القتال والجهاد والحرب في هذه البيعة؟

أجاب أبو مصعب:

ــ لم يكن الإذن بالقتال نزل بعد.. يعني.. لم يكن يُسمح للمسلمين بالقتال. ولهذا سمّوا هذه البيعة: (بيعة النساء) لعدم ورود أيّ ذكر للقتال فيها..

وقالت صادقة:

ــ صحيح.. لم يرد ذكر القتال أو الجهاد بمعنى القتال في هذه البيعة، ولكنّ مجاهدة النفس والعادات والعقائد والتقاليد القديمة البالية المنحرفة واردة في هذه البيعة.. فهناك معركة العقيدة، إذ لا بدّ لهم من أن يخلعوا عقائد الجاهلية وأوثانها وأصنامها وموبقاتها من

أنفسهم.. وهناك المعركة من أجل تثبيت تعاليم الإسلام، ومبادئه، وأخلاقه، فلا سرقة، ولا زنا، ولا قتل أولاد، ولا كذب ولا بهتان ولا عصيان.

كنت أختلس النظر إلى جارنا، وكنت أقرأ الإعجاب في عينيه وفي قسمات وجهه، وهو يستمع إلى أختي صادقة التي بهرتني أنا أيضاً بكلماتها هذه، فقلت:

ــ وسافر مصعب مع المسلمين إلى المدينة.

فتابع جارنا يقول:

ــ ونزل عند الرجل المؤمن أسعد بن زرارة، وانطلق يدعو إلى الله ورسوله بالحكمة والموعظة الحسنة.

ــ وهل استجاب أهل المدينة له يا سيِّدي؟

ــ كلَّ الاستجابة.. لأنهم عرفوا في مصعب داعياً إلى الله بصدق وإخلاص، كما عرفوا فيه الزهد بما في أيديهم، فهو لا يعرف شيئاً اسمه طمع، كما لمسوا أخلاقه العالية، فلم يروه يوماً يغضب، أو يغتاب، أو يسبّ أو يشتم.. ما كان مصعب يقول إلاَّ خيراً، فأحبّوه وأقبلوا عليه، وآمنوا بما يدعوهم إليه، حتى دخل الإسلام إلى كلّ بيت من بيوت المدينة.

كان جارنا يتحدث، وكنت أتخيّل زعماء الأوس والخزرج في مثل خيلاء زعماء قريش، وفي عنادهم، وكفرهم، وقد لحظ جارنا شرودي، وربّما خمَّن ما كان يعتمل في نفسي، وأراد أن يشدّني إلى حديثه، فقال:

ـ ما لك يا صادق؟

ـ لا . . لا شيء . . شرود بسيط . .

ـ فيم كنت تفكر يا بني؟

ـ كنت أتساءل في نفسي عن زعماء المدينة . . ألم يكونوا كزعماء مكة في كفرهم، وعنادهم، وصدّهم عن سبيل الله؟ ألم يقفوا في وجه مصعب؟ ألم يحاربوه ويعذّبوه وإخوانه من المسلمين من أهل المدينة؟

فقال العمّ أبو مصعب في هدوء:

ـ الأمر هنا مختلف يا صادق . . فلم يكن زعماء المدينة كزعماء مكة . . كان زعماء الأوس والخزرج من العقلاء والمنصفين، ولهذا، عندما كان الواحد منهم يثور في وجه مصعب، كان مصعب يتحمّله، ويصبر عليه، حتى يهدأ غضبه، ثم يقول له في ابتسامته الآسرة:

ـ لقد سمعْنا ما قلت، أفلا تجلس لتسمع ما نقول؟ فإن رضيتَ به قبلتَه، وإن كرهتَه تركتَه.

فما يكون من ذلك الزعيم الأوسيّ أو الخزرجيّ إلاَّ أنْ يجيبه في استسلام:

ـ أنصفت.

ثم يجلس معه، ويستمع إلى ما يقول، وكان مصعب يبادر إلى بعض آيات من القرآن الكريم، فيقرؤها عليه، حتى إذا رأى أثرها فيه، دعاه إلى الإسلام، فلا يملك الرجل إلاَّ أن يستجيب له.

فهتفت صادقة:

ـ ما شاء الله . . ما شاء الله . . معنى هذا، أن مصعباً لم يجد مشقة في دعوة أهل المدينة إلى الإسلام.

ـ لا يا ابنتي يا صادقة.. لا بدّ من المشقّات والصعوبات والعراقيل، ولكنّ مصعباً تغلّب عليها بصبره العجيب، وبحكمته المذهلة، وبجدّه واجتهاده، حتى لم يستعص عليه سوى بعض الذين كانت تربطهم بيهود المدينة روابط المصلحة والضلال، كعبد الله بن أبيّ بن سلول، وكأبي عامر الملقب بالراهب مثلاً.

ـ لماذا يا عمّي؟

ـ بالنسبة إلى ابن سلول.. كان هذا الرجل يستعد للبس التاج.. كان قومه يصنعون له التاج، ليكون ملكاً على الأوس والخزرج معاً، فجاء مصعب، ودعا القبيلتين إلى الإسلام، فآمن به خلقٌ كثير من كلتا القبيلتين، فاستلّ مصعب، بالإسلام وأخوّة الإسلام، السخائم والأحقاد والثارات من قلوبهم ونفوسهم، فصاروا إخوة متحابّين في الله، وتناسوا ما كان بينهم من عداوات ومخاصمات ودماء، كانت في الجاهلية، وبسبب اليهود والجاهلية وفسادهما وضلالهما.. صاروا إخوة في الإسلام، ولم يعودوا في حاجة إلى ملك كعبد الله بن أبيّ، وتخلّصوا من وساوس اليهود، ومن فسادهم وإفسادهم.. لقد أنقذهم الإسلام من ضلال الجاهلية، ومن مكر اليهود وكيدهم.

لاحظت تأكيد جارنا على اليهود، فسألته عن دورهم في المدينة، فأجاب:

ـ كان اليهود يعيشون في المدينة، وكانوا يفسدون ما بين قبيلة الأوس وقبيلة الخزرج، ويثيرون العداوة والبغضاء بينهم، وكانت

القبيلتان تقتتلان بسبب تحريض اليهود، وكانتا تلجآن إليهم، تستدينان منهم الأموال والسلاح، وكان اليهود لا يبخلون عليهما بالأموال والسلاح، بل كانوا يغدقونها عليهما، لتبقى القبيلتان تحت رحمتهم، وتحت وطأة الديون التي كانوا يستدينونها منهم، حتى جاء مصعب بدعوة الإسلام، وأخوّة الإسلام، يصلّي فيهم، ويخطب خطب الجمعة، ويغرس في نفوسهم الحبّ في الله، والأخوّة في الله، إلى أن جعل منهم كتلة واحدة متحابّة متعاونة متضامنة.

توقّف جارنا أبو مصعب عن الكلام، ليلتقط أنفاسه اللهثىٰ، ولكنّ صادقة، كانت متشوّقة لمعرفة المزيد من أخبار هذا الصحابيّ النبيل، فقالت له:

ــ تابعْ يا عمّي أرجوك، فسيرة مصعب الخير بديعة ورائعة.

أشرق وجه العمّ أبي مصعب بالسرور، وقال:

ــ كان مصعب دائب الحركة، لا يقرّ له قرار.. كان يقتحم على الناس دورهم والأماكن التي يوجدون فيها، ولا ينتظرهم حتى يأتوا إليه، فيعلّم المسلمين منهم أمور دينهم، ولا يكثر عليهم، ولا يثقل، فهو قد تعلم أنجع أسلوب من النبيّ الحكيم العليم، وهو عدم الإثقال على الناس في أيّ شيء، فكان مصعب يعلمهم يوماً ثلاث آيات من القرآن المجيد ولا يزيد، ويوماً خمس آيات، فإذا رأى منهم النشاط الذي يتسع لأكثر من ذلك، زاد الآيات إلى العشر، لا يكاد يتعدّاها، ويطلب من المسلمين حفظها، وفهمها، والعمل بها.. وأما غير المسلمين، فكان يتغلغل إلى نفوسهم في تُؤَدَةٍ ولين،

فلا تغيب شمس يوم، حتى يسلم على يديه الرجل والرجلان والعشرة، ومصعب سعيد باستجابة الناس له، ينام سويعاته قرير العين، وبطنه خاوٍ ضاوٍ لأنه لم يحتو إلاَّ على كسرة خبز، وبضع تمرات، يدفعها إلى جوفه بجرعة ماء، ولو أراد أن يملأ جوفه بأطايب الطعام لكان له ما يريد، لأن مضيفه أسعد بن زرارة، ما كان يبخل عليه بشيء.. ولكنه الزهد.

ــ أريد أن تحدّثنا يا عمّي عن إسلام أحد زعماء المدينة على يد مصعب.

قال العمّ أبو مصعب، بعد أن أسند ظهره إلى كرسيّه كعادته بين الحين والحين:

ــ اسمعا قصة إسلام زعيمين من زعماء المدينة، هما: سعد بن معاذ، وأُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ، رضي الله عنهما.

قلنا: إن مصعباً نزل عند أبي أمامة، أسعد بن زرارة رضي الله عنه. وأسعد بن زرارة هو أحد المسلمين الاثني عشر الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة الأولى، وهو ابن خالة سعد بن معاذ.

وكان أبو أمامة يصحب مصعباً إلى بيوت أهل المدينة، وإلى أماكن تجمّعهم وتجمّع قبائلهم، ليسمعهم كلام الله، ويدعوهم إلى الإسلام.

وذات يوم، خرج أبو أمامة مع مصعب إلى بستان من بساتين المدينة، واجتمع عليهما بعض الرجال، ليستمعوا من مصعب إلى ما يدعو الناس إليه.

سمع سعد بن معاذ بهذا، فقال لصديقه أسيد بن حضير:

ــ لا أبالك.. انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دورنا، ليفسدا علينا عبيدنا وضعفاءنا، فازجرهما، وانههما عن غشيان دورنا بعد اليوم، ولولا قرابة أبـي أمامة مني، لكفيتُك ذلك.

فأخذ أسيد بن حضير حربته، وذهب إليهما. فلما رآه أبو أمامة مقبلاً عليهما، قال لمصعب:

ــ انظر.. هذا سيِّد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه.

قال مصعب في اطمئنان المؤمن إلى قدر الله:

ــ إن يجلس أكلّمه.

وصل إليهما أسيد، ووقف قبالتهما، وقال والشرر يتطاير من عينيه:

ــ ما جاء بكما إلينا؟ هل جئتما لتحرّضا سفهاءنا وعبيدنا وضعفاءنا علينا؟ اعتزلانا، إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال له مصعب بلسان المؤمن الواثق بربّه:

ــ أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيتَ أمراً قبلْتَه، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره.

قال أسيد:

ــ أنصفت.

ثم ركز أسيد حربته، وجلس إليهما ليسمع من مصعب شيئاً من القرآن، وكان مصعب يتلو آيات الله بصوته العذب الحنون:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم. حم. والكتاب المبين. إنّا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون. وإنه في أمّ الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم، أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين؟. وكم أرْسلنا من نبيٍّ في الأوّلين. وما يأتيهم من نبيٍّ إلاَّ كانوا به يستهزئون. فأهلْكنا أشدَّ منهم بطشاً ومضى مَثَلُ الأوّلين. ولئن سألتهم مَنْ خلقَ السماوات والأرض ليقولُنَّ خلقهنَّ العزيز العليم. الذي جعل لكم الأرض مهداً، وجعل لكم فيها سُبُلاً لعلكم تهتدون. والذي نزّل من السماء ماءً بقدَرٍ فأنشرنا به بلدة ميتاً، كذلك تُخرجون. والذي خلق الأزواج كلَّها، وجعل لكم من الفُلك والأنعام ما تركبون. لتستووا على ظهوره، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه، وتقولوا: سبحان الذي سخَّر لنا هذا وما كنا له مقرنين. وإنَّا إلى ربّنا لمنقلبون. وجعلوا له من عباده جزءاً، إنّ الإِنسان لكفور مبين. أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين. وإذا بُشّر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظلَّ وجهه مسوّداً وهو كظيم. أوَمَنْ يُنَشَّأ في الحلية، وهو في الخصام غير مبين. وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، أشَهِدُوا خلْقَهم؟ ستُكتب شهادتهم ويُسألون. وقالوا: لو شاء الرحمن ما عبدناهم، ما لهم بذلك من علم. إنْ هم إلاَّ يخرصون. أم آتيناهم كتاباً من قَبْله فهم به مستمسكون؟. بل قالوا: إنّا وجدْنا آباءنا على أمّة، وإنّا على آثارهم مهتدون. وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلاَّ قال مترفوها: إنّا وجدنا آباءنا على أمة، وإنّا على آثارهم مقتدون. قال: أوَلو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟ قالوا: إنّا بما أُرسلتم به كافرون. فانتقمنا منهم. فانظر كيف كان عاقبة المكذّبين﴾ صدق الله العظيم.

فعلّقت صادقة على هذه الآيات الكريمات بقولها:

ـ اختيارٌ موفّق.. عرف مصعب رضي الله عنه كيف يختار الآيات التي تلامس وجدان هذا الرجل العاقل.

وقال أبو مصعب:

ـ كان مصعب يتلو تلك الآيات من سورة الزخرف، بكلّ ما أوتي من قدرة على النفاذ في نفس أسيد.. قرأها عليه بلسانه وعقله ومشاعره وأحاسيسه الفياضة بالصدق والإخلاص.. كان يتلو تلك الآيات وعيناه تقرآن تفاعل أسيد مع ما يسمع، حتى إذا آنس منه القبول، دعاه إلى الإسلام، فقال أسيد في نشوة روحية:

ـ ما أحسن هذا الكلام وما أجمله!.

فقال له مصعب:

ـ هلمّ إلى الإسلام يا أخي، ففيه خير الدنيا وخير الآخرة.

قال أسيد:

ـ كيف يصنع من يريد الدخول في هذا الدين؟

قال مصعب:

ـ تغتسل، وتتطهر، وتطهر ثوبيك، وتشهد شهادة الحق فتقول: أشهد ألاَّ إله إلاَّ الله، وأشهد أنّ محمّداً رسول الله، ثم تصلّي.

فما كان من أسيد إلاَّ أن ينهض فيغتسل، ويتطهر، ويطهر ثوبيه، ثم شهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين. ثم نظر إلى مصعب وأسعد بن زرارة، وقال لهما:

ــ إن ورائـي رجـلاً، إن اتبعكمـا، لـم يتخلـف عنـه أحـد مـن قومه... سأذهب إليه، وسأرسله إليكما الآن.

فسأل أبو أمامة:

ــ تعني سعد بن معاذ؟

ــ أجل.. ابن خالتك سعد بن معاذ يا أبا أمامة.. حذار أن يفلت من أيديكما.

قال أبو أمامة في ثقة واطمئنان:

ــ فيك وفي سعد كل الخير والعقل، وما أظنّه يفعل إلاَّ مثل ما فعلت.

أخذ أسيد حربته، وعاد إلى سعد، حيث كان في ناديه مع بعض ذوي قرابته، فلمّا رآه سعد قال:

ــ أحلف بالله، لقد جاءكم أسيدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلمّا وقف أسيد أمامهم، قال له سعد:

ــ ما فعلتَ؟

قال أسيد:

ــ كلّمتُ الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً. وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت.

ثم هزّ أسيدٌ حربته، وأقبل نحو سعد يقول:

ــ وقد حُدّثت أنَّ بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، لأنه ابن خالتك، تحقيراً لك يا سعد.

فهبَّ سعدٌ مغضباً، فأخذ الحربة من يد أسيد، وقال:
ـ والله ما أراك أغنيتَ شيئاً!.

وأسرع سعد نحو أسعد ومصعب، فلمّا رآهما مطمئنين، عرف أنّ أسيداً قال شيئاً، وأراد شيئاً آخر، أراد أن يسمع سعد من مصعب، فقال لأسعد بن زرارة في غضب:

ـ يا أبا أمامة.. أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة، ما رُمْتَ هذا مني.. أتغشانا أنت وصاحبك هذا في دارنا بما نكره؟

فقال له مصعب:

ـ أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيتَ أمراً ورغبتَ فيه قبلتَه، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره.

قال سعد بن معاذ:

ـ أنصفت.

ثم ركز حربته، وجلس يسمع صوت الداعية ينطلق بتلك الآيات من القرآن الكريم، فكانت تدخل قلب سعد وعقله دونما استئذان، وإذا هي ترتفع به وتتسامى، ويعرف مصعب هذا في حركات سعد، فأقبل عليه يدعوه إلى ما فيه خيره وخير قومه والناس جميعاً، إلى الإسلام، فقال له سعد مثلما قال قبله صاحبه أسيد:

ـ ما يصنع الذي يريد الدخول في هذا الدين؟

أجاب مصعب في سعادة غامرة:

ـ تغتسل، فتتطهّر وتطهّر ثوبيك، ثم تشهد أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله، ثم تصلّي.

فهبَّ سعدٌ إلى الماء، فاغتسل وتطهَّر وطهَّر ثوبيه، ثم شخص ببصره نحو السماء، وشهد شهادة الحقّ:

ــ أشهد ألّا إله إلاّ الله، وأشهد أنّ محمداً رسول الله.

ثم صلَّى ركعتين، ومصعب يتأمله في فرح، فلمّا انتهى، هجم عليه ابن خالته أسعد، واحتضنه، وعانقه، وأحسّ سعدٌ بدموع حارة تنسرب من عيني أسعد، فازدادت روح سعد شفافية، فانفلت من بين يدي أبـي أمامة، وعاد مسرعاً إلى نادي قومه، وقد اصطحب معه أخاه وصاحبه الأثير: أسيد بن حضير. فلمّا رآه قومه مقبلاً، قال قائلهم:

ــ نحلف بالله، لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

تقدّم سعد نحو قومه بخطوات ثابتة، فلما وقف عليهم قال:

ــ يا بني عبد الأشهل!. كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا:

ــ سيِّدنا، وأشرفُنا، وأوصلُنا، وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة.

فقال سعد:

ــ إذن فاعلموا أنّ كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام، حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

قال أبو أمامة ومصعب بن عمير:

ــ فوالله ما أمسىٰ في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلاّ مسلماً أو مسلمة..

لقد أسلم بنو عبد الأشهل جميعاً، فكان سعد بن معاذ من أعظم الناس بركة في قومه وفي الإسلام معاً..

وطلب سعد من ابن خالته أسعد، أن يسمح بانتقال مصعب إلى بيته، فأذن أسعد بذلك، لأنّ سعداً سيّد الأوس، وصاحب كلمة مسموعة، ورأي حصيف، وعقل راجح، وقد لاحظ أسعد ومصعب من صدق عاطفته، وقوة إيمانه، وعمق إخلاصه، ما طمأنهما إلى سير الدعوة في المدينة المنوّرة، فسعد بن معاذ رجلٌ قلّ نظراؤه بين الرجال، شجاعة، وكرماً، وسخاء نفس..

كان مصعب مسدَّداً في كل خطوة يخطوها.. يحاور بهدوء، ويدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويبتعد عن الجدل العقيم، ويتجاوز الأشواك والعقبات التي تعترض طريقه.

ـ هل كان يُطْلع النبـيَّ على إنجازاته يا عمي؟

ـ طبعاً يا صادق، حتى إذا استدار العام، رحل مصعب إلى مكة المكرمة، قبيل موسم الحج، وبادر إلى النبـيّ الكريم يخبره بما فتح الله عليه من قلوب وعقول، ويبشّره بأن جمعاً غفيراً قد دخل في الإسلام، وسوف يفد إليه في موسم الحج القابل، من تقرُّ بهم عينه الطاهرة.

قالت صادقة، كالمتابعة:

ـ وجاءت وفود الحجيج من المدينة المنوّرة.

ـ أجل.. جاؤوا وهم مصممون على إنهاء حالة الاضطهاد

التي يتعرض لها النبيُّ وصحابته.. والتقوا رسول الله ﷺ، فيما سُمِّي ببيعة العقبة الثانية، أو بيعة العقبة الكبرى.

ـ كم كان عددهم يا عميّ؟

ـ كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً، وامرأتين، هما: نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو بن عديّ.. تواعدوا مع الرسول عند شِعْب العقبة، وتسلّلوا إلى هناك مُسْتخفين عن أعين قريش، وجاء النبيّ الكريم ومعه عمُّه العباس بن عبد المطلب.

فسألت صادقة:

ـ هل كان العباس مسلماً يا عمي؟

ـ لا.. لم يكن مسلماً وقتها، إلاَّ أنه أحبّ أن يحضر مع النبيّ الكريم، ويطمئن على ابن أخيه، لأنّ أمره يهمّه، ويريد أن يستوثق له، كما كان النبيُّ الكريم يثق بعمّه العباس، ويطلعه على بعض أموره.

وبعد أن سلّم الرسول وجلس، كان العباس أول المتكلّمين.

ـ هل تحفظ كلام العباس يا عمّي؟

ـ طبعاً أحفظه.. قال العباس رضي الله عنه:

يا معشر الخزرج.. إنّ محمداً منا حيث علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هم على مثل رأينا فيه، فهو في عزمة من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلاَّ الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مُسْلموه وخاذلوه بعد

الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عزّة ومنعة من قومه وبلده.

فهتفتُ:

ــ هذا كلام رائع، ولسيِّدنا العباس كلُّ الحقّ فيه.

وسألت صادقة:

ــ فماذا كان ردّ المسلمين يا سيّدي؟

ــ فوقف كعبُ بن مالك وقال:

قد سمعنا ما قلت، فتكلَّمْ يا رسول الله، فخذ لنفسك وربّك ما أحببت. فقال رسول الله ﷺ:

«تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقوموا في الله لا تخافون لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمتُ إليكم، مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم».

فسأله أحدهم: وماذا لنا إن نحن فعلنا ذلك يا رسول الله؟

فأجابه الرسول ﷺ: لكم الجنة.

فقام إليه المسلمون يريدون مبايعته، فتقدم أسعد بن زرارة من رسول الله، وكان أسعد أصغرهم سناً، وأخذ بيده الشريفة، ثم توجّه إلى المسلمين من أهل المدينة، وقال لهم:

«رويداً أهل يثرب، فإنّا لم نضرب إليه أكباد الإبل، إلاَّ ونحن نعلم أنه رسول الله. وإخراجُه اليوم مناوأةٌ للعرب كافّة، وقتلُ خياركم، وأن تعضّكم السيوف، فإمّا أنتم قوم تصبرون على ذلك،

فخذوه، وأجرُكم على الله، وإمّا أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفةً فذروه، فبيّنوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله».

فصحتُ من شدّة إعجابي بكلام أسعد:

ــ الله أكبر.. ما أعظمَ إيمان هذا الشاب. وما أرجحَ عقله، وما أروعَ كلامه!.

ــ فأخذ البراء بن معرور بيده وقال:

ــ نَعَمْ.. فوالذي بعثك بالحق، لنمنعنَّك مما نمنع أنفسنا وأهلينا.. فبايعْنا، يا رسول الله، فنحن، والله أبناء الحروب، ورثناها كابراً عن كابر.

فقام أبو الهيثم بن التَّيِّهان، وقال:

يا رسول الله.. إنّ بيننا وبين يهود حبالاً، وإنّا قاطعوها. فهل عَسَيْتَ، إن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنا؟

علّقت صادقة على كلام أبي الهيثم فقالت:

ــ هذا كلام صريح ومحرج.. فماذا كان ردّ الرسول القائد يا عمي؟

قال أبو مصعب:

ــ تحرّكَ رسول الله ﷺ في مجلسه ثم قال:

«بل الدّمَ الدم، والهدمَ الهدم. أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم».

ــ الله أكبر.. الله أكبر..

ـ ما أعمق هذا الكلام يا سيِّدي يا رسول الله! .

ـ ثم بايعهم رسول الله ﷺ وبايعوه، وأمرهم أن يختاروا من بينهم اثني عشر نقيباً، يكونون على قومهم، فاختاروا تسعة نقباء من الخزرج، وثلاثة نقباء من الأوس، فقال لهم رسول الله ﷺ:

«أنتم على قومكم، بما فيهم، كُفَلاء، كَكَفَلَة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيلٌ على قومي».

أحسست برأسي يتصدَّع، وأنا أتابع حديث العمّ أبي مصعب، فأردت، كعادتي، أن أتخفف من وطأة هذا الحديث الذي هزّني هزاً، فقلت:

ـ هل زار مصعبٌ أمَّه يا سيِّدي؟

أجاب أبو مصعب، وهو ينفخ شواظاً من نار:

ـ بلغ أمَّ مصعب أنّ ولدها مصعباً في مكة، فأرسلت إليه تقول:

يا عاقّ.. أتَقْدَمُ بلداً أنا فيه، ولا تبدأ بي؟

فاستأذن مصعبٌ رسول الله في زيارة أمّه، وأذن له الرسول الكريم طبعاً، فذهب لزيارتها.

ـ وكيف كان استقبالها له يا عمي؟

ـ أسوأ استقبال.. استقبلته بقولها:

إنك لعلى ما أنت عليه من الصَّبأة بعد؟
تزور محمداً قبل أن تزور أمَّك أيها الولد العاقّ؟

سألت جارنا أبا مصعب عن معنى (الصَّبَأة) فأجابني بقوله:

ـ الصَّبَأة: هي الانتقال من حال إلى حال. ويقال: صبأ الرجل: أي ترك دينه ودان بدين آخر، فهو صابىء. ولذلك كان المشركون يسمّون المسلمين صابئين، لأنهم تركوا دينهم الوثنيّ، وانتقلوا إلى الدين الإسلاميّ.

وسألتْ صادقة:

ـ فماذا أجاب مصعب أمَّه يا عمّي؟

ـ قال لها مصعب: بل أنا على دين رسول الله ﷺ، وما أنا بالولد العاقّ.. وما كنت لأبدأ بزيارة أحد قبل رسول الله ﷺ.

وأرادت أمّه أن تذكّره بما كان فيه نعيم، وما صار إليه من فقر وتشرد، فقالت له:

ـ مرةً في الحبشة، ومرة في يثرب؟ ألا ترى إلى ما أنت فيه من شقاء؟ تترك ما كنتَ فيه من نعيم، لتعيش عيشة البائسين المعدمين؟ أين عقلك يا بنيّ؟ أين؟

فقال لها مصعب بصوت يشوبه الحزن:

ـ يا أمّي.. إني لك ناصح، وعليك شفيق، فاشهدي أنه لا إله إلاَّ الله، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، تفوزي في الدنيا والآخرة.

فأرعدت أمُّ مصعب وأزبدت، وهدّدته بالحبس، ولكنّ مصعباً توعّد من يحاول حبسه بالقتل، فقالت له:

ـ اذهب لشأنك.. والثواقب لا أدخل في دينك فيُزرىٰ برأيي، ويُضَعَّف عقلي. ولكنّي أدعُك وما أنت عليه، وأقيم على ديني.

فعلّقت أختي صادقة على ما جرى بين مصعب وأمّه، فقالت:

ـ صدق الله العظيم.. إنك لا تهدي من أحببت، ولكنَّ الله يهدي من يشاء.. وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مَرَدَّ له.

ثم ماذا يا عمَّاه؟

ـ ثم عاد المسلمون إلى يثرب، أي إلى المدينة المنوّرة، وبقي مصعب مع رسول الله ﷺ مدّة شهرين، ثم لحق بالمسلمين في المدينة المنورة، وكان بهذا أول مهاجر إلى المدينة، ثم لحق به المهاجرون رضي الله عنهم جميعاً.

ـ وكيف كانت حياة مصعب المهاجر في المدينة يا عمي؟

ـ كحياة سائر المهاجرين الذين أمرهم النبيُّ ﷺ بالهجرة إلى المدينة.. حياة قاسية، عانوا فيها من الفقر والجوع وشظف العيش، ولكنهم كانوا يرونها حلوة حلوة، لأنها كانت حافلة بروح الأخوّة والإيثار، وبالدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله. وخاصة بعد أن هاجر رسول الله ﷺ إليها، وآخى بين المهاجرين والأنصار. وقد آخى النبيُّ الكريم بين مصعب وأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنهما.

فقلت:

ـ الصحابيُّ الجليل أبو أيوب الأنصاريّ يذكّرني بالجهاد والمجاهدين، وحياة مصعب حياة جهاد ودعوة وعناء. فهل تحدّثنا يا عمّي عن جهاد مصعب بن عمير رضي الله عنه؟

قال أبو مصعب، وهو يستند بظهره على كرسيّه:

ـ لعلكم تعرفون أن الإذن بالقتال حصل في المدينة، أمَّا في مكة، فلم يكن مسموحاً للمسلمين بالقتال.. في المدينة نزلت آية القتال:

﴿أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم. أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا، وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلاَّ أن يقولوا: ربُّنا الله. ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لهُدّمت صوامع وبيعٌ وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً. ولينصرنّ الله من ينصره، إنّ الله لقويٌّ عزيز. الذين إن مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، صدق الله العظيم﴾.

ففرح المسلمون أيَّما فرح بنزول هذه الآيات، والسماح لهم بالقتال في سبيل الله، لنشر دينه، وإعلاء كلمته..

وقد خاض مصعب غزوة بدر الكبرى، تحت راية رسول الله ﷺ.. كان مصعب يحمل لواء الرسول القائد، وكان بطلاً شجاعاً، قاتل المشركين قتال الأبطال المغاوير؛ لأنّ حامل اللواء، يجب أن يكون بطلاً صنديداً..

وانتصر المسلمون في بدر، وقتلوا من المشركين سبعين رجلاً من أبطالهم وصناديدهم وطغاتهم، كأبي جهل، وكعتبة وشيبة، وأسروا سبعين آخرين، وكان مصعب يصول ويجول في تلك المعركة، في إقدام من لا يخاف الموت، ولا يحسب له أيّ حساب.

وقاتل مصعب في غزوة (أُحُد)، وكان يحمل لواء الرسول

القائد ﷺ. . قاتل كالأسد الهصور. . فجاءه ابن قميئة، وحمل عليه بسيفه، فضرب يده اليمنى فقطعها، فاستلم مصعب اللواء بيده اليسرى وهو يقرأ بصوت عال:

﴿وما محمدٌ إلاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل﴾.

فحمل عليه ابن قميئة مرة أخرى، وضرب بسيفه يده اليسرى فقطعها، فحنا مصعب على اللواء، وضمّه بعضديه على صدره، وهو يتلو قول الله تعالى:

﴿وما محمد إلاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل﴾.

فحمل عليه ابن قميئة مرة ثالثة برمحه، فأنفذَه في صدره، فاندقَّ الرمح، وفاضت روح مصعب، وارتفعت فوق سحابة من عبير إلى الفردوس الأعلى، حيث الأنبياء والشهداء والصدّيقون والصالحون، والحور العين. .

ووقف رسول الله ﷺ على شهداء أُحُد، وتلا قول الله تعالى:

﴿من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدّلوا تبديلاً﴾.

ثم نظر رسول الله ﷺ إلى مصعب، وتذكر أيامه الماضيات في مكة، فقال:

«لقد رأيتك بمكة، وما بها أحدٌ أرقَّ حُلّةً، ولا أحسنَ لمّةً (أي شعراً) منك، ثم أنت مُشَعَّثُ الرأس في بُرْدة».

وقال الصحابيُّ الجليل: خبَّاب بن الأرتّ، يروي حكاية تكفين

مصعب: «هاجرْنا مع النبـيّ ﷺ، نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله، فمنّا من مضى أو ذهب، لم يأكل من أجره شيئاً، كان منهم مصعب بن عمير، قُتل يوم أُحُد، لم يترك إلاَّ نَمِرةً (أي كساءً) كنّا إذا غطَّيْنا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غُطّي بها رجلاه خرج رأسه، فقال لنا النبـيُّ ﷺ: غطّوا بها رأسه، واجعلوا على رجله الإذخر.

ووقف الصحابـيُّ المجاهد الشجاع عامر بن ربيعة رضي الله عنه يُدْلي بشهادته عن مصعب وقال:

«كان مصعب بن عمير، رضي الله عنه، لي خِدْناً وصاحباً منذ يوم أسلم، إلى أن قُتل رحمه الله بأُحُد.. خرج معنا إلى الهجرتين جميعاً بأرض الحبشة، وكان رفيقي من بين القوم، فلم أرَ رجلاً قطُّ كان أحسن خُلُقاً، ولا أقلَّ خلافاً منه».

ورأيت جارنا أبا مصعب يمسح دمعاتٍ فرّتْ من عينيه، وهو يختم حديثه عن الداعية الشهيد مصعب بن عمير، بصوت متهدّجٍ باكٍ، فنهضتُ مستأذناً، وأنا أقول له:

ـ شكراً يا عمي على حديثك الرائع عن مصعب، ويحقّ لك أن تسمّي ابنتك مصعب، وعندما أكبر ويأتيني ولد، سوف أسمّيه مصعباً إن شاء الله...

• • •